رقص ورقص

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان شتاء هذا العام فى القاهرة موسماً عامراً بالمتعة الفنية التى تنتقل إليها .

شوهد فيه معرض التماثيل الفرنسية ، وشوهد فيه معرض بل معارض شتى للصور المصرية ، وشوهد فيه تمثيل فرقة من أحسن الفرق الانجليزية لروايات من أحسن الروايات القديمة والحديثة ، وشوهد فيه أو سمع فيه شريط شامل لأغانى الموسيقار العظيم جوهان شتراوس ، الذى يقال بحق إنه أرقص الكرة الأرضية فى مدارها ؛ إذ لم يبق فى الغرب ولا فى الشرق إنسان يرقص على الأنغام الفنية المهذبة إلا وقد رقص على أنغام جوهان شتراوس ..

عازف عظيم تفيض ألحانه بالمرح والطرب والشباب والحياة . بلغ مبلغ القادة أصحاب الفرق وهو فى الحادية والعشرين ، وعزف للملوك والملكات فقلبهم على وقار العرف ، ووقار العرش ، ووقار السن، فى كثير من الأحيان . ومات فى التاسعة والأربعين عن مئات من أدوار الرقص على اختلافه ، وخرج من العاصمة الانجليزية قبيل موته فى أسطول من الزوارق التى تحييه بالغناء والهتاف ... وأوصى بعد كل هذا النجاح وكل هذا الطرب وكل هذا السرور الذى أمتع به الناس . فبماذا أوصى ؟

بأعجب ما يخطر على بال ... أوصى ألا يتعلم أبناؤه الصناعة الموسيقية أبداً ، وأن يختاروا ما شاءوا من الصناعات إلا صناعة أبيهم ... فأنبأنا بذلك نبأ ليس بالجديد ، وإن كان لنسيان الناس إياه قد يحسب من الجديد الغريب : ذلك أن حياة الفن حياة فداء لأنها حياة فتوح . فما من فنان عبقرى إلا وهو فاتح بمعنى من معانى الفتح والجهاد ؛ وكل جهاد فداء ، وكل فداء فيه ألم محقق ، وللنصر بعده سرور مشكوك فيه ، لأنه سرور يتمناه من قد حرمه من النظارة المتفرجين ... أما صاحبه فقلما يحسه من قريب .

على أن أبناءه قد خيبوا حنانه وإن لم يخيبوا ظنه ، فقد نشأوا جميعاً موسيقيين ناجحين مشهورين ، وأوشكت أعمالهم أن تلتبس بأعمال أبيهم ، ولم نسمع أن أحداً منهم أوصى بمثل وصيته فى ساعة الوفاة ، ولم نسمع بأعقاب لهم فى عالم المزف والغناء !

* * *

كانت الليلة التى قضيناها فى سماع « شتراوس » من ليالى الفن النادرة ؛ وكانت دار الصور المتحركة مكتظة بالسامعين ؛ وكان تسعة أعشارهم من الأوربيين ، والعشر الباقى من المصريين الذين لا يسيغون ما يساغ من ذلك الغناء الشائع فى بلادنا ، إن صحت تسميته بالغناء .

وسألنا أنفسنا : أين يختلف الفنان وهما على حسب المفروض أو المظنون من معدن واحد ؟

إن موسيقى شتراوس إحدى الموسيقات التى يصح أن تسمى غنائية بسيطة تميزاً لها من الموسيقى العويصة المركبة التى يريدها عشاق فاجنر ، أو الموسيقى العقلية الصافية التى يذيعها فى هذا العصر ستافنسكى الروسى Stavinsky ؛ فإذا كانت هذه الموسيقى الغنائية لا تساغ فى مصر فما الفارق بينها وبين موسيقى الغناء الشائع بين الجمهرة « السامعة » من سواد المصريين ؟

الفارق أنك لا تستطيع أن تضع موسيقى شتراوس على لسان حيوان .

فهى تمثل المرح ، ولكنه مرح الفكر الإنسانى حين ينشط فيملى نشاطه على الحواس والأعضاء .

فالراقص على أنغام شتراوس إنما يرقص لأن له نفساً إنسانية قد شاع فيها السرور فنهضت بالجسم الذى هى فيه إلى الحركة الموزونة والنشاط المنسوق .

أما المرح الذى تمليه الأغانى السقيمة عندنا فهى تمثل الحيوانية كما مسختها الإنسان حين استغرقها كلها فى الشهوة والخلاعة ، والحيوان لا يعرف الخلاعة فى الشهوات كما يعرفها الإنسان الممسوخ

ومرقصات شتراوس لا تخلو من بعض الشجا وبعض الأنين ولكن أى شجا ؟ وأى أنين ؟

شجا إنسان وأنين إنسان .

أما هذه الشكايات التى نسمعها فى الأغانى السقيمة فليس فيها قط ما يستكثر على حيوان .

فإن الحيوان ليحس الانقباض ويحس الألم ، وإذا ضرب أو سقم فترجمت شكايته كلاماً عربياً فليس بالكثير عليه أن يقول « آه » وأن يذكر اللوعة والسهر والصيام عن النوم والطعام

أما الأنين الذى يريك فكراً يتألم ، أو يريك معنى إنسانياً فى حالة الشكاية والقنوط ، فذلك شىء مختلف جد الاختلاف عن هذه الكلمات التى لا تعدو أن تكون صرخات حيوان ، مترجمة إلى عبارات الإنسان

* * *

ومن الظلم للفن أن نطلق اسم الفنون على هذه الأغانى المرقصة التى تهتز لها أعطاف بعض السامعين فى الأقطاب الشرقية

فالحق أنها نقيض الفنون فى جوهرها المشترك بين جميع المعانى الفنية

لأن الجوهر المشترك بين جميع المعانى الفنية هو تغلب الفكرة على المادة ، أو سيطرة المعانى على الأشكال

فالرخام مادة تتغلب عليه فكرة الفنان فإذا هو مثال لمعنى من معانى الجمال

والكلمات مادة مبعثرة تتغلب عليها فكرة الشاعر أو الكاتب فإذا هى وحى ناطق بأحاسيسه ومعانيه

والجسم مادة تتغلب عليه الحركة الموزونة فإذا هو رقص يريك كيف تساق الأعضاء فى مطاوعة الألحان والأصداء ، وكيف تخضع الأجسام لإملاء النظام والرواء

كل فن فهو فكرة غالبة على مادة ، أو معنى غالب على شكل ، أو فوضى ممثلة فى صورة جميلة

فما هى المرقصات التى تهز الأعطاف بين جمهرة السامعين من سواد الشرقيين

هى نقيض ذلك

هى غلبة الجسدى على المعنوى ، وهى طغيان المادية على المطامح الإنسانية ، وهى انقياد وليست هى بإخضاع وترويض وتنظيم

هى الشىء الذى يذهب سفلاً حين يذهب الفن صعداً ، وهى الفتور الذى يهبط بالأجسام إلى مهاوى الشهوات ، وليست هى بالنشاط الذى يطير بالأجسام فى فضاء المرح والطلاقة

وقد تسف ونتحدر من سماء شتراوس إلى حضيض «الجازبند» الذى لا شك فى غلبة الشهوات عليه ، فهل من عين بصيرة يغم عليها الأمر فلا تبصر الفارق بين شهوات الجازبند وشهوات المرقصات المعهودة فى هز الأعطاف وتحريض النزعات ؟

الجازبند مرح جسدى ، ولكنه مرح حيوان صحيح ممتلئ برغبات الحياة يصول فى حركة حية لا تعرف الإعياء

أما « هز الأعطاف » المعهود فهو مرح جسدى أيضاً ولكنه يذهب بصاحبه إلى السرير ولا يندفع به اندفاع الحيوان القوى السليم

وفرق بين حيوان فى سلامة الحيوانية ، وحيوان يضاف إليه مسخ الإنسانية ، ولا يظفر من الحيوانية بالصحة واستقامة الفطرة

فرق بين رقص شتراوس ورقصنا ، بل فرق بين رقص الجازبند ورقصنا ، لأن رقص شتراوس معنى إنسانى ، ورقص الجازبند فطرة حيوانية ، ورقص الأغانى المبتذلة عندنا قد خلا من أجل ما فى الإنسان ، وأجل ما فى الحيوان ، وجمع المسخ والتشويه فى هذا وذاك

* * *

لم يكن شأننا كذلك فى الزمن القديم ، لأننا نرى على المعابد الفرعونية صور الراقصات والراقصين ، ونرى فى الريف المصرى مثالاً متخلفاً من رقص الرجال والنساء ، فلا نجد فى هذه المناظر المرسومة أو المشهودة خلاعة ولا شهوة ممسوخة ، بل نجد فيها جميعاً ما أسلفناه من غلبة المعانى وانقياد الأجساد ، أو نجد فيها صحة الفطرة واستقامة البنية الحيوانية . ولا ندرى متى نعود إلى ما كنا عليه ، أو متى ندين بدين الفن الجميل فى تغليب النظام على الفوضى ، والفكرة على المادة ، والمعانى الإنسانية على الدوافع الجثمانية . ولكننا ندرى أننا عجزنا زمنا طويلاً عن إخضاع أجسادنا لأفكارنا أيام كنا بأجسادنا وأفكارنا خاضعين لغيرنا ... فقد حان إذن موعد الخلاص من قيودنا ، ولن تزال فينا بقية من قيود الأمر والاستعباد ، ما بقيت الفنون عندنا فنون أجساد أو فنون استسلام وانقياد .

عباس محمود العقاد